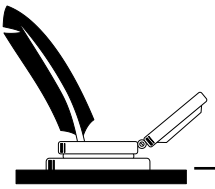

الوسطية كمنهج لحل المعضلات الراهنة

مدير التحرير

ربما تحولت مفاهيم مثل «الاعتدال» و «الوسطية» إلى مفاهيم هلامية يصعب تحديد مدلولاتها. فضلاً عن أن شيوع الألفاظ وتداولها العمومي، مع قطع النظر عن جذورها ودلالاتها وما تختزنه من إحالات رمزية ودلالية يجعلها تفتقر في مضامينها، وتتحول إلى مجرد مفردات في لغة يومية. وخلال هذه العملية يتم ارتكاب الكثير من التبسيط، بخاصة من داخل التيارات الفكرية والدينية التي ربما تستعير ألفاظاً من القاموس الفكري الغربي وتنقلها إلى قاموسها الديني تحت ذرائع تحركها الحماسة أو التصورات البسيطة لمنظومة الأفكار وسياقات نشأتها، ومن هذا القبيل وقعت استعارة الكثير من المصطلحات من الفكر الغربي وتمت أسلمتها أو إسقاطها على مفاهيم ومصطلحات إسلامية بل وأحياناً قرآنية!(01)

ويسود في حقبة ما من الحقب نموذج جديد للتفكير بسبب تغييرات كبرى تحدث تحويلاً في رؤية الناس للعالم (**Weltanschauung**) ومتغيراته، وفي العادة يتم التعبير عن المفاهيم الجديدة بمصطلحات تجريدية للغاية، عادة ما تكون غير قابلة للضبط في شكل نهائي، ومع ذلك فإن هذه المراوغة والنزوع الزئبقي للمصطلحات للتفلت من قبضة التعاريف الصارمة والحادة هي التي تمنح هذه المصطلحات قدرتها على التأثير والإلهام والتغيير.

غير أن الملاحظ في المجتمعات الإسلامية (التي لها صلتها الخاصة بتراثها الديني) نزوعها إلى تأصيل التغييرات عبر النصوص الشرعية، وغالباً لا تأخذ المصطحات دورها التحريضي- من دون أن يحصل هذا التأصيل والتجذير (القسري ربما) في المعرفة الدينية والتراث الإسلامي بوجه عام، وما إن يتم التأصيل حتى تبدأ المجاذبات المفهومية لهذه المصطلحات، لكسب الشرعية وسحبها من الآخرين.

هذا ما حدث بالضبط مع الكثير من المصطلحات الكبرى في التاريخ الإسلامي الحديث. فمصطلح «الإصلاح» الذي «ابتكره» الشيخ محمد عبده بمضمونه الجديد يختصر- دلالياً تفسير الحالة التي يمر بها المسلمون والحل المطلوب لها. فمفهوم «الإصلاح» مهما اختُلف فيه، فإنه يتضمن

إقراراً بالسلب بوجود «عطل» أصاب الأمة وخلفها عن التقدم، وتصريحاً بإعادة تأهيل الأمة وتخليصها من «العطل».

الأمر ذاته حدث مع مصطح «التجديد» الذي شهدنا التفافاً غير مسبوق حوله بدءاً من السبعينات المنصرمة، ولا يزال الجدال حوله دائراً إلى اليوم، ولكنه آخذ في الخفوت، فقد أصبح دعاة «التجديد» يمثلون نمطاً جديداً في التفكير له ملامح تميل نحو التمايز، ولكنه لا يزال متوهجاً وملهماً إلى اليوم. (02)

وفي السنوات الأخيرة دخل مصطلح «الوسطية» في شكل غير مسبوق حيِّزَ الاهتمام الاسلامي العام، فقد صدرت عشرات الكتب تحمل في عنوانها هذا المصطلح، مثل: «الوسطية في الإسلام»، و «الوسطية في الفكر الإسلامي» و «الوسطية: حياة وحضارة» و «الوسطية في ضوء القرآن الكريم» و «مفهوم الوسطية في السنة النبوية»، وغير ذلك مما يؤشر الى حضور جديد واستثنائي لهذا المصطلح.

وبالطبع، فإنه سرعان ما بدأ صراع التجاذبات والشرعيات، وبلغ التجاذب حداً جعل البعض يجد فيه تعبيراً أصيلاً عن السلفية التقليدية أو «منهج أهل السنّة والجماعة، وسلف الأمّة»، ويجد فيه آخرون ما يمنحهم الشرعية لعصرنة الإسلام والخروج من «أسْرِ» التراث الفقهي إلى «رحابة» الاجتهادات الجديدة التي تأخذ بيد المسلمين للشراكة مع العالم.

ولأن الوسطية لغوياً تُعرَّف بأنها وسط بين أمرين، وهي لم تغادر كثيراً فضاء الدلالة اللغوية، فقد حدد كل امرئ مسافة الوسط وفق مقاييسه الخاصة وأسقط عليها مفهومه عن المصطلح، حتى وقع المصطلح أسير هذا التوسط، فانقسمت الوسطية إلى وسطيات: بين «وسطية مستنيرة» وأخرى (بضرورة التلازم أو المفهوم - بحسب مصطلح أصول الفقه) «وسطية مظلمة» وثالثة ربما تكون «وسطية علمانية»! ويعود مصطلح «الوسطية المستنيرة» إلى «الرئيس الباكستاني برويز مشرّف، إذ دعا في مؤتمر القمة الإسلامية في ماليزيا عام 2004 إلى «وسطية مستنيرة» «تجنب استخدام سياسة المواجهة أو الاستسلام في التعامل مع الغرب»، وتركز «على سياسة التحديث والتعاون في تبادل المنافع، من خلال الحوار».

هكذا يجرى الأمر الآن لمصطلح «الوسطية» ما بين التجاذب المفهومي والشرعي والجمهرة، بالتأكيد فإن الأمر نفسه حدث من قبل مع مصطلحات كبيرة أخرى، مثل «الحضارة»، حتى كاد المرء لا يسمع كلمة حضارة أو يقرأها في عنوان خطاب أو نص ما إلا وينتابه شعور بالبساطة والابتذال. وربما هذه الأيام يحدث مع مصطلح «الإرهاب» بعد أن أفلته السياسيون من عقاله ليطاول معارضيهم ويدخل بوتقة الإعلام التي تلعب دور تسطيحه وجمهرته، وفي اعتقادي أن كتابات الشيخ يوسف القرضاوي هي الكتابات المؤسسة لهذا المصطلح، وخصوصاً كتابه «الصحوة الإسلامية: بين الجحود والتطرف» (1982)، الذي لقي وقتها إقبالاً وشهرة منقطعي

النظير، وأعيد طبعه مرات عدة خلال عام واحد، وفي هذا الكتاب يخصص فصلاً مختصراً بعنوان «دعوة الإسلام إلى الوسطية» يتحدث فيه في بضعة سطور عن وسطية الإسلام، وأن «الوسطية إحدى الخصائص العامة للإسلام»، وعلى رغم أن المصطلح بدأ منذ ذلك الوقت (أعني مطلع الثمانينات) بالانتشار.

الملاحظتان الرئيستان هنا، أولاً: المصطلح ظهر في سياق «مواجهة» التطرف والعنف الذي أصبح نهجاً للكثير من الحركات الإسلامية منذ منتصف السبعينات في مصر وسورية وفلسطين، وبدأ بجذب الشباب المتدينين في ظل حالة الاستعصاء السياسي والتعامل اليساري الأصولي أو الاستئصالي مع الحركات الإسلامية والنزوع الديني في العالم العربي مع موجة المد القومي والماركسي. وثانياً: المصطلح مشحون بالانشغال السياسي، فهو عملياً نشأ من رحم المواجهة السياسية وظهر ليكون جزءاً من مواجهة سياسية فكرية محتدمة.(03)

أضيفت إلى هاتين الملاحظتين ملاحظة أخرى؛ وهي أن مصطلح الوسطية لم يحمل في كتابات القرضاوي الأولى معنى التوسُّط بين شيئين (الإفراط والتفريط) بقدر ما كان يحمل معنى مواجهة التطرف الحركي والعنف، ويكاد معناه ينحصر في الدعوة إلى التعقل والتراجع إلى العمل السياسي السلمي.

وعلى رغم أن لحظة نشوء المصطلح تشي بالكثير من المسوغات السياسية لظهوره، وتطبع السياسة بصماتها في شكل واضح عليه، إلا أن الكتابات في ما بعد حاولت نفي الارتباط بين ظهور مصطلح «الوسطية» والعنف الذي مارسته بعض حركات الإسلام السياسي ووسم بـ «الأصولية»؛ إذ تمدد مفهوم الوسطية - كما أشرت - ليشغل مساحات أوسع في الفكر الإسلامي، وفي شكل خاص المساحة المعرفية والاجتماعية والأخلاقية.

وحين نقول: إن الوسطية تجمع بين صريح المعقول وصحيح المنقول، نفترض بأننا نملك صريح المعقول وصحيح المنقول وأن المهمة تنحصر في مجرد الجمع بينهما، فإذا تجاوزنا ذلك كله، إلى العلم / المعيار الذي يمكّننا من ذلك الجمع، غير الاعتباطي أو التوفيقي أو حتى التلفيقي، فسيكون ذلك العلم متعالياً على الطرفين، الصحيح والصريح، ومن ثم فهذا المتعالي لا يقبل الوسطية والتوسط، لأنه علم معياري.(04)

يقول أحد المشاركين في ندوة (الوسطية بين التنظير والتطبيق) الذي عقد في المنامة من أعمال منتدى الفكر العربي: (أشار العديدون من المشاركين أثناء المداولات إلى أنهم وصلوا إلى البحرين وهم يعتقدون أن الوسطية مفهوم واضح تماماً، وأنهم يفهمونه، وأن مهمة المؤتمر الأساسية هي البحث عن أسباب غياب الوسطية عن مواقف ومسلكيات البعض إلا إن أغلبية المشاركين، وبعد يومين من المداولات وأحياناً المشادات الكلامية، خرجت وقد تبخر ما لديها من قناعات تتعلق

بمفهوم الوسطية، إذ ساهمت الآراء المتعددة التي تشعبت كثيراً في إحلال الغموض ، فكان الوضوح والارتباك محلَّ الثقة (صحيفة البيان).

إن نجاح الإعلام في بناء ثقافة الوسط هو في صناعة المفهوم، ومحاولة وضع أسس وقنوات تؤدي إلى (الوسطية) على المستوى الفردي والجماعي، وعلى المستوى السياسي والثقافي، وفي ثقافة النخبة وفي وعي الجمهور.

إن مفهوم الوسطية هي الخيرية وهي محاسن الأمور ، ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾يعني أمة الخيرية ، وقولُه تعالى: ﴿قال أوسطهم﴾يعني خيرهم وأعقلهم ، والرسل من أوسط أقوامهم نسباً: أي خيرهم وأفضلهم نسباً.(05)

إن على الإعلام تأكيد أن (الوسطية) هي الخيرية دائماً، وأن الوسطية في الأخلاق مثلاً هي خير الأخلاق.

وإن بناء (الوسطية) في المجتمع هو بناء أفكار ورؤى ومتى ما صار الإعلام يمثل الوسطية بذوات ويخدمهم فإن فكر (الوسطية) يتجسد بذوات فقط ويصبح غير مؤثر، وكذلك المعالجة للتطرف والعنف يجب أن تنصب على الأفكار لا الذوات.

الوسطية) ليست منهجية القطار والسكة، أي ليست أفكاراً على خط واضح ثم تنطلق، إنها عملية مستمرة ومتتابعة تحتاج إلى تعزيز دائم، إنها الصراط المستقيم الذي أُمرنا أن ندعو الله أن يهدينا إليه عشرات المرات يومياً، والدعاء الدائم بالتوفيق لما اختلف فيه، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا أتباعه، إنها جهود متوالية ودائمة تحث على مسلك الوسطية وتقلل من حجم التطرف يوماً بعد يوم.

ولذلك كله تناقش دورية دراسات إسلامية في عددها الرابع ملفا كاملا حول موضوع الوسطية كفكرة ومنهج وتحاول أن تبحث مع القارئ الكريم آليات تجسيد الوسطية انطلاقا من عرض بحثين واحد يتناول الخطاب الاسمي بنظرة وسطية للدكتور عصام البشير وبحث آخر فقهي بنظرة وسطية حول الفوائد البنكية ،وتنتهي الدورية بعرض لفتاوى بنفس النظرة .

دورية دراسات إسلامية تقوم بدورها الإعلامي في بناء ثقافة الوسطية ووضع أسس وقنوات تؤدي إليها على كافة المستويات السياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

هوامش :

(01) ،(03) الوسطية ومشكلاتها في سياق المعرفة ،معتز الخطيب،كاتب سوري.
(02)،(04) انبعاث الوسطية الإسلامية وتجاذباتها ، عبد الرحمن الحاج ،كاتب سوري .
(5) الإعلام وثقافة الوسطية ،بقلم أ. عادل الماجد.

مدير التحرير
فاروق أبو سراج الذهب